﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٣٥﴾

[النور: 35]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نورُ الوحي يُجلّي ظلمةَ العقل، كما يُجلّي نورُ الكون ظلمةَ الوجود

لمّا ذكر الله في الآية السّابقة إنزالَهُ لأوعيةِ نورِ الهدى ودينِ الحقِّ الظّاهرِ على الدّين كلِّهِ بالبيِّناتِ والأمثال والموعظةِ النّاجزة؛ ذكَر هنا في هذه الآية أنَّ هذا الدِّين الذي ظهرَ بنورِه على ما سواه من الأديان، فبدَّد بنورِه ظُلُماتِها، هو عند التقريب كنورِ السماوات والأرض الذي عمَّ كلَّ شيءٍ في الوجود، من الذرَّةِ إلى المجرَّة، فكذلك مثلُ نورِ الحقِّ الذي غطّى ظلمات الباطل ودمغَها، وعمَّ بآثارِ إشراقاتِهِ قلوبَ المؤمنين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ﴾: اسم للتجويف (الكوَّةُ) في الحائط، غير المثقوبِ ولا النّافذ، مِثْلُ الكوَّةِ لَكِنَّها غَيْرُ نافِذَةٍ، فإنْ كانَتْ نافِذَةً؛ فهي الكوَّةُ[1]، أو هي الأنبوبة وسط القنديل، وهي الحديدةُ أو الرَّصاصة التي يوضع فيه الذُّبال وهو الفتيل، وتكون في جَوْفِ الزجاجة[2]، ووزنه (مِفْعَلَة) بكسر الميم على وزن اسم الآلة من (شَكا)، فيه إعلالٌ؛ لأنَّ أصله (مِشْكَوَةٌ)، تحرَّكت الواو بعد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 235.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 404.

فتح، فقلبت ألِفًا، وفي المشكاة أقوالٌ كثيرة في معناها[1]، وهل هي عربيَّة أم حبشيَّة مُعَرَّبة؟ خلافٌ[2].

2) ﴿مِصۡبَاحٌۖ﴾: اسم آلةٍ لِلْإناءِ الَّذي يوقَدُ فيهِ بِالزَّيْتِ لِلْإنارَةِ، جاء من الثلاثيِّ اللازم (صَبَح) على غير قياس، وزنه (مِفعال) بكسر الميم[3]، وهو مُشْتَقٌّ مِن اسْمِ الصُّبْحِ، أي: ابْتِداءُ ضَوْءِ النَّهارِ، فالمِصْباحُ آلَةُ الإصْباحِ، أي: الإضاءَةِ، ويقال للسّراج: مِصْباحٌ، والمِصْباحُ: مقرُّ السِّراج[4]، والمصباح: السِّراجُ الضَّخمُ[5]، وإذا كانَت المِشْكاةُ اسْمًا لِلْقَصيبَةِ الَّتي توضَعُ في جَوْفِ القِنْديلِ؛ كانَ المِصْباحُ مُرادًا به الفَتيلَةُ الَّتي توضَعُ في تِلْكَ القَصيبَةِ[6].

3) ﴿زُجَاجَةٍۖ﴾: واحدة الزُّجاج، اسم جمعٍ للجنس، والزُّجاج معروف، وزنه فُعالَةٌ بضمِّ الفاء، قيل: يجوز في الفاء الكسر والفتح، ومثل ذلك الزُّجاج[7]، وقد كانوا يَتَّخِذونَ مِنَ الزُّجاجِ آنيَةً لِلْخَمرِ وقَناديلَ لِلْإسْراجِ بِمَصابيحِ الزَّيْتِ؛ لِأنَّ الزُّجاجَ شَفّافٌ لا يَحْجِبُ نورَ السِّراجِ، ولا يَحْجُبُ لَوْنَ الخَمرِ وصَفاءَها؛ ليَعْلَمَهُ الشّارِبُ[8].

4) ﴿دُرِّيّٞ﴾: (درّ) أصلٌ يدلُّ على اضْطِرابٍ في شيءٍ، وسُمّي الدرُّ بذلك؛ لاضطرابٍ يُرَى فيه لِصَفائِه، كأنَّه ماءٌ يَضْطَرِبُ، وقوله: ﴿كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾، أي: مضيءٌ، منسوبٌ إلى الدُّرِّ، وهو كِبارُ اللُّؤْلُؤِ؛ تَشْبيهًا بصفائِه، والدريُّ: الشَّديدُ الإنارةِ[9].

5) ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾: مؤنَّث شرقيٍّ وغربيٍّ، و﴿شَرۡقِيَّةٖ﴾ اسمٌ منسوبٌ إلى الشَّرْق، و﴿غَرۡبِيَّةٖ﴾ اسْمٌ مَنْسوبٌ إلى الغَرْب، وزنهما فعليَّة بفتح الفاء[10]، والمرادُ: لَيْسَتْ مَنسوبَةً إلى الشَّرْقِ وحْدَهُ، ولَيْسَتْ مَنسوبَةً إلى الغَرْبِ وحْدَهُ، بَلْ هي بارِزَةٌ لِلشَّمسِ مِن حينِ الشُّروقِ إلى وقْتِ الغُروبِ؛ ليَكونَ ثَمَرُها أنْضَجَ، فيَكونَ زَيْتُهُ أصْفى[11].

(1) صافي، الجدول: 18/ 264.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 404.
(3) صافي، الجدول: 18/ 264، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 236.
(4) الراغب، المفردات: (صبح).
(5) السمين، الدر المصون: 8/ 405.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 236.
(7) صافي، الجدول: 18/ 264.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 237.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (در)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 305، وابن جرير، جامع البيان: 17/ 302.
(10) صافي، الجدول: 18/ 264.
(11) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 275.

6) ﴿زَيْتُهَا﴾: الزَّيْتُ: عصارة الزَّيتون[1]، والزَّيتون: اسم جنسٍ، واحدُهُ زيتونةٌ، كقمحٍ وقمحةٍ[2]، يقال: زاتَ طعامَهُ ورأسَهُ؛ إذا دَهَنَهُما بِالزَّيْتِ[3]، والزَّيْت: اسمٌ للسائل الذي يؤتَدَمُ به، ويخرج من الزَّيتون وغيره[4].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

إدراكُ النّـورِ هـو غـايـة نـزول القرآن

اللّه سبحانه هو مصدرُ النّورِ في السماوات والأرض، فهو مُنَوِّرهما بكلِّ نورٍ حسّيٍّ نراه، ونسير فيه، وبكلِّ نورٍ معنويٍّ، كنورِ الحقِّ والعدل، والعِلم والفضيلة، والهدى والإيمان، وبالشواهد والآثار التي أودعها مخلوقاته، وبكلِّ ما يدلُّ على وجود اللّه، ويدعو إلي الإيمان به سبحانه[5]، فلولا نورُهُ تعالى؛ لتراكمت الظُّلمات، بعضُها فوق بعضٍ، مثل نوره الذي يهدي إليه، وهو الإيمان، والقرآن في قلب المؤمن كمشكاة، وهي الكوَّة في الحائط غير النافذة، فيها مصباح، حيث تجمع الكوَّة نورَ المصباح، فلا يتفرَّق، وذلك المصباح في زجاجة، كأنَّها - لصفائها - كوكبٌ مضيء كالدُّر، يوقَد المصباح من زيت شجرة مباركة، وهي شجرة الزيتون، لا شرقيَّةٌ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ولا غربيَّةٌ فقط، فلا تصيبها الشمسُ أوَّلَ النَّهار، بل هي متوسِّطة في مكان من الأرض لا إلى الشرق ولا إلى الغرب، يكاد زيتها - لصفائه - يضيء من نفسه قبل أن تمسَّه النار، فإذا مَسَّتْهُ النار؛ أضاء إضاءة بليغة، نور على نور، فهو نور من إشراق الزيت على نور من إشعال النار، فذلك مثل الهدى يضيء في قلب المؤمن، واللّه يهدي، ويوفِّق لاتباع القرآن مَن يشاء، ويضرب

(1) الراغب، المفردات: (زيت).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: 155/ 2.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زيت).
(4) صافي، الجدول: 18/ 264.
(5) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن، ص: 524.

الأمثال للناس؛ ليعقلوا عنه أمثاله وحكمه، والله بكلِّ شيء عليم، لا يخفى عليه شيءٌ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملةِ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

جملة ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مستأنفةٌ مُعلِّلةٌ ومقرِّرة لمضمون ما قبلَها، كأنَّه قيل: فعلنا ذلك الإنزالَ للبيِّنات وأمثال الهدى، ومواعظ النّور؛ لأنَّ اللهَ أوجد نورَ السموات والأرض، وأوجد جميع الأشياء، ونوَّرها، منه ابتداؤها، وعنه صدورها، فأنوار البصيرة كلُّها منه، وأنوار البصر كلُّها منه[2]، ويصحُّ أن تكون الجملة المباركَة استئنافًا بيانيًّا؛ جوابًا عن سؤالٍ قد ينشأ في نَفْس السّامع، كأنَّه لمّا عرف قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾، سأل قائلًا: (كيف يستقِلُّ الكتاب العزيز باحتواء ذلك الفُرقان النّورانيِّ من البيّنات والمواعظ والأمثال فيه، فمَن يجعل ذلك مُمكِنًا، وأنّى ذلك؟) فيُجاب بأنَّ هذا حاصلٌ؛ لأنَّ الله هو نورُ السَّماوات والأرض.

الله تعالى منوّر السموات والأرض حسًّا بالخلق والإيجاد، ومعنًى بهداية أهلهما

المجازُ في إطلاقِ المصدرِ على اسم الفاعل:

في قوله سبحان: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عبَّر بالمصدر (نور)، وأراد اسم الفاعل: (مُنَوِّر)، على سبيل المجاز المرسل علاقته التعلُّق الاشتقاقي؛ والغرضُ المبالغة، كأنَّه عينُ نورِه، وعبَّر عن المُنوِّر بنفس النّور تنبيهًا على قوَّة التنوير، وشدَّة التأثير، وإيذانًا بأنَّه تعالى ظاهرٌ بذاته، وكلُّ ما سواه ظاهرٌ بإظهاره[3].

اللهُ موجِدُ أنوارِ السماوات والأرض

ويصحُّ أن يجري التركيب في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على تقدير مضاف محذوفٍ، أي: الله ذو نور، وصاحب نور السماوات

يُمدَحُ المخلوقُ بكونهِ نفْحَةً من آثار صنعةِ الله

(1) مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد.
(2) طنطاوي، الوسيط: 10/ 127.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 175.

والأرض، كقولهم: زيدٌ كَرَمٌ، أي: ذو كَرَمٍ، وأخبر عن الله بالنّور؛ لأنَّه أثرٌ من آثاره عظيم، فأُسْنِد إليه دون المضاف المقدَّر؛ تعظيمًا للنّور ومدحًا له؛ إذْ به يقع الانكشاف، ويتحقَّق الظُّهور في الموجودات، فالنّور هنا ممدوحٌ بالله سبحانه[1].

التَّشبيهُ البليغ في: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

الثَّناءُ على الله سبحانه بأعاظِم خلقِهِ

ويصحُّ أن يكون الإخبارُ عن الله بالنّور تشبيهًا بليغًا حُذِفت منه الأداةُ، كأنَّه سبحانه لكثرةِ آثاره من الأنوار الحسيَّة والمعنويَّة التي عمَّتِ الخلائق، وكان بها قوامهم ومعاشهم، فلهذه الكثرة والسَّعة في إيجاد النّور؛ جُعِل سبحانه هو النّور مبالغةً في الثَّناء عليه سبحانه بأعاظِم خلْقِهِ، وهو النّور، فخرج التركيب مخرجَ المدحِ والمبالغة، فالتشبيه هنا حاصلٌ لا في الكيفيَّة - تعالى الله عن مُماثلته شيئًا من خلقه - بل حاصلٌ في التسميةِ وفي معنى الكمال والسَّعة والبينونة التامَّة الذي يؤذن به لفظُ (النّور)، وهو من باب الإخبارِ عن الذّات الجليلةِ بالمصدر؛ لقصد المبالغة والمدحِ، كأنَّهُ لكثرة تنويره سبحانه الوجود، صِرْتَ ترى الله نورًا على معنى الجلال والكمال، فالتشبيهُ جارٍ على التقريب الذِّهنيِّ، لا التَّحصيل المِثْلي[2].

الاستعارةُ التصريحيَّة في: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

اللـهُ هـادي النّاس، وهدايته لهم نور

يصحُّ أن يجري قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ على معنى: (الله هادي أهل السماوات والأرض)، على تقدير المضاف، وتشبيه الهُدَى والحقِّ بالنّور، بجامع الظُّهور والانكشاف في كلٍّ، فالمراد النّورُ المعنويُّ، وهو الحقُّ والعدل الذي قامت عليه السماوات والأرض، ففي اللفظ استعارةٌ تصريحيَّة، وهي تبعيَّة؛ لأنَّها جاريةٌ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 90، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 190.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 43، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 175، ودرويش، إعراب القرآن: 6/ 608، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 190.

بعد تأويل المصدر باسم الفاعل في منوِّر من النّور، وهادٍ من الهُدى، أو الاستعارة أصليَّة، كأنَّه قال: دينُ اللهِ نور السماوات والأرض، فشبَّه دين الحقِّ بنور السماوات والأرض[1].

المجازُ المرسل والاستعارة في (النّور):

النّـورُ يكشف الأشـيـاءَ الموجـودة، والإيـجـاد يُظهِر الأشياء المعدومة

يجوزُ أن يكون قولُه: ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ محمولًا على معنى: (موجِد أهل السماوات والأرض) على حذف المضاف، والمجاز المرسل بإطلاق الملزوم (النّور)، وإرادة لازم معنى النّور، وهو (الظّاهر بنفسه والمُظهر لما سواه، وهذا هو معنى واجب الوجود، الموجِد لِما عداه)، ويصحُّ أن يكون: (موجِد أهل السماوات) استعارةً تصريحيَّةً، حيثُ شبَّهَ واجب الوجود ﷻ الموجِد لغيره، بالنّور بجامع إظهار الأشياء في كلٍّ، فالنّور يظهرها من الخفاء، والإيجاد يُظهرها من العدم[2].

نكتةُ إضافةِ النور للسماوات والأرض خاصَّة:

القـرآنُ يُـضيءُ الـقـلـوبَ، كما أنَّ النّـورَ يُضيء الوجود

أضيفَ النّورُ إلى السماوات والأرض خاصَّة، في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ للدَّلالة على سَعة إشراقهِ وفُشوِّ إضاءته، حتّى استغرق ذلك السماوات والأرض، فأضاف إلى أوسع ما في الوجود؛ ليدلَّ على سَعةِ المُضاف الذي هو النّور الذي عمَّهما[3]، ولأنَّ السموات والأرض هما المقرُّ المعروف للمكلَّفين، وهما منتهى ما تصل إليه مدارك البشريَّة من المعرفة، فالحِسُّ مقصورٌ عليهما، لا يُجاوزهما[4]، وعلى اعتبار النّور مستعارًا للبيان الحقِّ، الآيات أو القرآن، فإضافته للسَّماوات والأرض؛ للدَّلالة على كمالِ شيوع (البيان) المستعار له، وغايةِ شموله لكلِّ ما يليق به من الأمور الَّتي لها مدخلٌ في إرشاد الناس وهدايتهم، بوساطةِ بيان شمولِ

(1) ابن عطية: 4/ 183، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 357.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 107، والآلوسي روح المعاني: 9/ 357.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 43.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 358.

المستعار منه (النّور) لجميع ما يقبله، ويستحقُّه من الأجرام العلوية والسفليَّة في السماوات والأرض[1].

المجازُ المرسل في: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

في قوله: ﴿نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عبَّر عن جميع الوجود والعالَم بالسَّماوات والأرض، فأطلق الجزءَ، وأراد الكلَّ، والمعنى: (الله نور العالَمِ كلِّه)[2].

العالَم أوسعُ من مجرَّد السَّماوات والأرض

ويجوزُ أن يُرادَ بالسَّماواتِ والأرضِ مَن فيهما مِن بابِ قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82]، أي: (نور أهل السماوات والأرض)، وذلك أبلغُ من ذِكْر المضاف المحذوف؛ لأنَّ في هذا الحذف إيهامًا أنَّ السَّماوات والأرض قابلةٌ لهذا النّور، كما أنَّ القريةَ نفسَها تشهد بما يُسأل منها، وذلك أبلغُ في الدَّلالة على الإحاطة بالمقصودِ وألطف دلالة، وهذا التوجيهُ جارٍ على المجاز المرسل، بإطلاق المحلِّ، وإرادة الحالِّ[3].

إطلاقُ المحلِّ وإرادة الحالِّ فيه

نكتةُ اختيارِ النّور دون الضَّوء:

النّورُ مبدأُ الضوء، فهو أصل الكشْفِ

لم يأتِ السياق الكريم بلفظ (الضّوء)، دون (النّور) على معنى: أنَّ اللهَ مُضيء السَّماوات والأرض، مع أنَّ الضَّوء أشدُّ إشراقًا وإفراطًا في الإنارة، ونكتة ذلك: أنَّ النّور أعمُّ من الضّوء، فكلُّ محلٍّ تحقَّق فيه الضَّوءُ؛ تحقَّق فيه النّور، وليس العكس، فلمّا كان النّور أعمَّ؛ اختير النّور على الضّوء؛ لاستجماع الأعمِّ خصائص الجنس واستغراقه صفات الماهية دون الأخصِّ، وأيضًا: النّور هو مبدأ الضّوء، وعنه يتشعَّب، ويتفرَّع، فهو الأصل والمصدر، كما أنَّ اللهَ سبحانه هو مبدأ الموجودات، ومصدر الكائنات، وأصلُ كلِّ ذرَّةٍ ومَجَرَّةٍ، ولهذا السِّرِّ البديع واللطف الرَّفيع كان النّور من أسمائه

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 107، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 175.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 358.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 233.

تعالى دون الضَّوء والضِّياء، ولذا كان النّور أثْبَت، وأقرَّ؛ لأنَّه الأصل والمبدأ، وأمّا الضَّوءُ؛ فهو زائدٌ على الأصل، والزّائدُ لا ثبات له بدون أصله، فكان النّورُ أفضلَ وأحقَّ هنا بالاصطفاء[1].

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾:

تُضرَبُ الأمثالُ لتقريب ما يَقصُر اللفظُ عن موافاةِ حقيقتِه

جملة ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه لمّا قال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، سأل سائلٌ: (وما معنى هذا النّور، وما المراد به؟) فأُجيب: بالمَثَلِ للتَّقريب: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾، وعليه: فجملة: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ إيضاحٌ وتفسير لما قبلها[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمثَل:

تُضرَبُ الأمثالُ لإظهار عجائب الأحوال

التَّعبيرُ بالمثل في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ يدلُّ على فرادة ما في حيِّزه من مضمون؛ لأنَّ المراد: صِفةُ نورِه كذا، لكنَّ المَثَل لا يُقال في أيِّ صفة، بل في الصِّفة المشتملة على غرابةٍ تستدعي عجَبًا[3]، والمراد: صفةُ نورِهِ العجيبة الشَّأن في الإضاءة[4].

مرجعُ الضَّميرِ في: ﴿نُورِهِۦ﴾:

نورُ الإيمانِ من الله، منه بدأ وإليه يعود

الظّاهر عوْدُ الضَّمير إلى الله سبحانه في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾؛ لِقرب ذكره سبحانه في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والمعنى: (مثل نوره الذي يقذفُهُ في قلب المؤمن، ويهديه به)[5]، والقول بأنَّ الضَّميرَ عائدٌ إلى المؤمن، على تأويل: (مثل نورِ المؤمن)، فمعناه صحيحٌ، لكنَّ إجراء الضَّمير على المؤمن، ليس كذلك؛ لعود الضمير حينئذٍ على ما لا ذِكْر له في النَّظم، وهذا على خلاف الأصل، وأمّا المعنى فصحيحٌ؛ لأنَّه من باب التفسير باللازم؛ لأنَّ نور الله هو الحقُّ الذي

(1) القونوي، حاشية القونوي: 13/ 358.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 183، وأبوحيان، البحر المحيط: 8/ 44، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 107، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 272.
(3) القونوي، حاشية القونوي: 13/ 364.
(4) طنطاوي، الوسيط: 10/ 128.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 183، والسمين، الدر المصون: 8/ 404.

يُنير به قلبَ المؤمن، ويهديه، فيصير ذلك نورًا للمؤمن ونورًا منه، فنور المؤمن هو من هذا النّور المضاف إلى ضمير الجلالة، ويؤيِّد هذا التفسيرَ إسنادُ هذا النور إلى المؤمنين في قوله: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: 28].

دلالةُ إضافةِ النور إلى ضمير الجليل سبحانه:

النّورُ في التَّمثيل مخلوقٌ، فلا ينسحب على المولى سبحانه

ضرْبُ المَثَلِ للنّور، وإضافته إلى ضميره سبحانه، في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾، يدلُّ على أنَّ الإخبارَ عنه سبحانه بالنّور في الجملة التي قبلها: ﴿ٱللَّهُ نُورُ﴾ مجازٌ، فليس على ظاهره؛ لأنَّه لو كان النّور عيْنَهُ سبحانه؛ لزم من ذلك إضافة الشَّيء إلى نفسِهِ، فثبتت المغايرة بين المضاف والمضاف إليه في: ﴿نُورِهِۦ﴾[1].

إجراءُ التركيبِ على حذف المضاف في: ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ﴾:

ما ذُكِرَ في المشبَّهِ يجري على المشبَّهِ به، وما يُقدَّر في المشبَّه يقدَّر في الثّاني كذلك

قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ جارٍ على حذف مضاف، أي: (مثل نوره كمَثَل نور مشكاة) والحذف؛ للإيجاز لدلالة المَثَل في صدر الكلام عليه، وتقدير المضاف في النَّظم؛ لأنَّ المَثَل في المشبَّه، لا بدَّ أن يَرِد كذلك في المُشبَّه به؛ لجريان التمثيل على الطرفين، وتقدير النور مضافًا إلى المشكاة في: (كمثل نور مشكاة أو كصفة نور مشكاة)؛ لاقتضاء ذِكْر المصباح بعده تقدير النّور[2].

نكتةُ تقديمِ المشكاة على المصباح:

تقديمُ المشكاة؛ لأنَّها المقصودة بالإنارة

لم يقل في السّياق الكريم: (مثل نوره كمصباحٍ في مِشكاة)، بل قال: ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾؛ لأنَّ المِشكاة هي حاويةُ المصباح ووعاؤه، وموضع قراره، فالمصباحُ موضوعٌ في المشكاة - التي هي تجويفٌ في الحائط مسدود، غير نافذٍ ولا مثقوب ولا مفتوح - فقدَّمها ليدلَّ بها على سلامة المصباح، وحيثيَّتِه المتمكِّنةِ في الموضع،

(1) القونوي، حاشية القونوي: 13/ 364.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 404، والقونوي: حاشية القونوي: 13/ 364.

وطلبًا من السّامع أن يستحضر المِشكاة أوّلًا؛ ليستدلَّ بها على نَفاذة ضوء المصباح في قُطْرِها، وانحصار أشعَّته فيها إيذانًا بشدَّة التوهُّج وفرط الإنارة، وقد يكون تقديمُ المِشكاة تقديمَ وجود؛ لأنَّ المِشكاة تكون أوَّلًا، ثمَّ يُجعَلُ المصباحُ فيها، كما يُشعِر تقديم المِشكاة بأنَّها مجعولةٌ للمصباح خاصَّةً، فلا يُزاحمه فيها شيءٌ آخر، وكما أنَّ القَلْب هو وعاء نور القرآن، وهو المحلُّ المقصود بإنارة الهداية، فكذلك المِشكاة هي المحلُّ المقصود بإنارة المصباح، فقُدِّمَتْ؛ لإرادة تمييزها بالمصباح، كأنَّه يقول: هي ليستْ مشكاةً كأيِّ مِشكاة، بل هي مِشكاة مستنيرة، لا يبرحها الضَّوء؛ ولأنَّ المقصودَ من المثل هو عمومُ هيئة المشكاة المُضيئة بالمصباح، وإنَّما قُدِّمت (المشكاة) في الذِّكر؛ لأنَّ المشبَّه به هو مجموع الهيئة، فاللفظ الدّالُّ على المشبَّه به هو مجموع المركَّب المبتدئ بقوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾، والمنتهي بقوله: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، فلذلك كان دخول كاف الشَّبَهِ على كلمة ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ دون لفظ ﴿مِصْبَاحٌ﴾ لا يقتضي أصالة لفظ مشكاة في الهيئة المشبَّه بها دون لفظ ﴿مِصْبَاحٌ﴾[1].

نكتةُ تخصيصِ المشكاة بالذِّكر دون غيرها:

تخصيصُ المشكاة بالذِّكر في ضرب المثلِ بها، في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾؛ لأنَّها أجمع للضَّوء الذي يكون من مصباحٍ أو غيره[2].

الإظهارُ في مقام الإضمار:

ثبوتُ المضمون بطريق الإخبار أكثرُ تحقيقًا من ثبوته بطريق الوصف

أعادَ لفظُ المصباح في قوله: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾، ثمَّ أعاد الزُّجاجة في: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾؛ لكمال تقرُّرهما في الذِّهن، وفائدة ذلك: ثبوتُ استحضار سببِ قوَّة النّورِ في كلٍّ؛ ليبقى الذِّهنُ في حالة استطراد مع مشهد النّور الصّافي بصفاء وعائهِ، وفي الإعادة تأكيدٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 235.
(2) القنوجي، فتح البيان: 9/ 424.

على أوعيةِ الضّوء، وأنَّه ما صفا إلّا بها، ففي الإعادة تفسيرٌ بعد إبهام، وتفصيلٌ بعد إجمال، بإعادة اللفظتين معرَّفتين بعد تنكير، وحكاية المضمون بعدهما بطريق الإخبار المستقلِّ عنهما؛ تنويهًا بشأنهما، وتنبيهًا على أنَّهما حريّان بالقصد والعناية، ولذا لم يقل: (فيها مصباح في زجاجةٍ كأنَّها كوكب)؛ لِكَوْنِ ثبوتِ المضمون في النَّظم بطريق الإخبار أكثر تحقيقًا من ثبوته بطريق الوصف، ثمَّ إنَّ جملة الخبر في: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾، و﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾، كلاهما في موقع الصِّفة للمصباح الأوَّل والزُّجاجة الأولى، فتحقَّق في الجملتين بإعادة اللفظتين الخبريَّة والوصفيَّة، وهو من كمال تحقيق المعنى[1].

فنُّ تشابهِ الأطراف:

في الإعادة تأكيدٌ وزيادةُ إفادة

إعادة المصباح، ثمَّ إعادة الزُّجاجة كذلك، ومن قبلهما إعادة لفظ النّور، فيه إجراءٌ لفنٍّ بديع هو (تشابه الأطراف)، وهو أن ينظر المتكلم إلى لفظةٍ وقعتْ في آخر جملةٍ من الفقرةِ في النَّثر، أو آخر لفظةٍ وقعتْ في آخر المِصراع الأوَّل في النظم فيبتدِئ بها، كما هو حاصلٌ في تشابه أطراف هذه الجمل المتلاحقة، في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾[2].

نوعُ (أل) ودلالتها البلاغيَّة في: (المصباح والزُّجاجة):

كمالُ العناية أليقُ بالإظهار لا بالإضمار

(أل) في كلمتي ﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾ والـ﴿زُجَاجَةٍ﴾ - في قوله تعالى: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾، وقوله: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ﴾ - للعهد الذِّكري، و(أل) هذه هي الرّابطة النّائبة عن الضمير، فمَرجِعها عائدٌ إلى لفظ ﴿مِصْبَاحٌ﴾ و﴿زُجَاجَةٍ﴾ النَّكرتين قبلهما، فنابَتْ منابَ الضمير دون أن يتغيَّر المعنى في النَّظم، والتقدير: (فيها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 176، والقونوي، حاشية القونوي: 13/ 365.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 236، ودرويش، إعراب القرآن: 6/ 611.

مصباح هو في زجاجةٍ هي كأنَّها كوكب دريٌّ)، وإنَّما آثر هنا التعبير بـ(أل) التعريف، دون الضَّمير؛ لغرض التفسير المنطوي على معنى التفخيم وكمال العناية بشأن المصباح والزُّجاجة[1].

نكتةُ التَّعبير عن صفاء الزُّجاجة بطريق التشبيهِ المرسل:

أسلوب التشبيه أوجزُ لفظًا وأبْيَن وصفًا

اختير طريقُ التشبيه في التعبير عن شدَّةِ صفاء الزُّجاجة؛ لأنَّه أوجزُ لفظًا وأبْيَن وصفًا، فقُصِد إنجازُ المعنى به بالأسلوب الصَّريح الواضح؛ لا سيَّما أنَّه تشبيهٌ مفرد في تلافيف التَّمثيل المركَّب في الآية، فهو تَبَعٌ غير مقصودٍ أصالةً في النَّظم، فجاء مُرسلًا، ليرتفع عنه التكلُّف في استيضاحه، ليلتقِطه الذِّهنُ ظاهرًا من غير تداخُلٍ أو تعسُّر؛ تفرُّغًا لإدراك التشبيه الكلّي في الآية، والذي يتعلَّق به الغرض، دون التشبيهات الجزئيَّة المنطوية فيه[2].

توجيهُ التشبيهِ في: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾:

اجتماع الصفاءين؛ صفاء اللباب وصفاء الإهاب

في قوله: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ شبَّه الزجاجة في إنارتها بكوكبٍ درّيٍّ، وذلك يحتمل معنيين: إمّا أن يريد أنَّها تضيء بالمصباح الذي فيها، وإمّا أن يريد أنَّها في نفسها شديدةُ الضَّوء لصفائها ورقَّة جوهرها، وهذا الأخير أبلغُ؛ لاجتماع نورِها مع نور المصباح، فيقع نورٌ على نور[3].

نكتةُ تخصيصِ الكوكب بالذِّكر دون النَّيِّرَيْن الشَّمس والقمر:

الكسوفُ والخسوف نقْصٌ يحجب الإنارة

شبَّه الزُّجاجة بالكوكب، ولم يشبّهها بأحد النيّرين: الشمس أو القمر؛ لنكتتَين: الأولى: لأنَّ الشمسَ والقمر يلحقهما الخسوف والكسوف بخلاف الكواكب، وما لا يلحقه الكسوفُ والخسوف، فهو أكملُ من تلك الجهة؛ لعارِض الحجْبِ في ضوئهما.

(1) ابن هشام، مغني اللبيب: 2/ 577، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 176، وبوضياف رمضان، الربط بـ(أل) التعريف في القرآن، مجلة المعيار، العدد (15)، ص: 73.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 239.

(3) ابن جزي، التسهيل في علوم التنزيل: 2/ 70.

الثانية: أنَّ ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ﴾ في قوله: ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٖۖ﴾ يُشبَّه بالشمس، حيث قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦﴾ [نوح: 16]، فكان المصباحُ بالشمس أليقَ، ولذا شبَّه الزُّجاجةَ بالكوكب؛ ليدلَّ على انحطاطِ رتبةِ الزُّجاجة من رتبة المصباح، ولو قيل: (كأنَّها شمس)؛ لزِم منه فضلُ الزُّجاجة على المصباح، وهو مُخِلٌّ بالمقصود، وأيضًا: لمّا كان الكوكب يدور حول الشمس، والقمر يدور حول الكوكب، كان الكوكب أجْوَرَ للشمس، فجعل للزُّجاجة هنا بجوار ما يشبه الشمس، وهو المصباح[1].

دلالةُ نِسبة الكوكب إلى الدُّرِّ:

عـلـة الـنـسـبـة الـتـشـبـيـهـيـة جـامـع الـصـفـاء والضياء في كلٍّ

الياء في قوله: ﴿كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ هي ياء النَّسب، والمقصود بها المُشابهةُ، أي: كوكبٌ كالدُّرِّ، ومنه قولهم: رورديُّ اللّون، أي: كَلَوْن الوردِ، والنَّسَب يدلُّ على المُبالغة في التشبيه، كأنَّه قال: كوكبٌ مِنَ الدُّرِّ، وغرض هذه النِّسْبَة: الاستدلال بصفاء الكوكب وشدَّة شفافيته وجودة نقاوته وإشراقه، على جودة المشبَّه ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ وصفاء مادَّتها، وقوَّة إشراقها بالنّور النّافذ فيها من المصباح، فهي لذلك تستجمع الضَّوء كلَّه وتستخلِصه، فلا يعبُر منها نورٌ شائب، ولا ضوءٌ ناقِص؛ لأنَّه زجاجٌ خالص كالدُّرِّ متلألِئٌ في نفسه، وعاكسٌ الضَّوءَ إلى غيره، فقوله: ﴿كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ كنايةٌ عن ازدياد نور المصباح وتركيزه؛ لإحاطته بما يختزلُهُ، ويحفظه من الزجاجةِ الدُّرِّيَّة، كما أنَّ شعاع الشَّمس إذا وقع على ماءٍ أو زجاجةٍ صافيةٍ؛ تضاعفَ النّور حتّى إنَّه يَظْهر فيما يقابِلُه مِثْل ذلك النّور، فيكون نورًا على نور، ولذا كان تشبيهُ الزُّجاجة بالكوكب الدريِّ مدْحًا لنور المصباح وتنويهًا بشأنه، والدُّرُّ نوعٌ معروف من جنس اللؤلؤ، وقيل: الكوكب الدريُّ عَلَمٌ بالغَلَبَة على كوكبِ الزُّهرَة، والظّاهر أنَّه ليس

(1) ثناء الله، التفسير المظهري: 6/ 523.

كذلك؛ لتنكيرِ ﴿دُرِّيٌّ﴾ الذي يفيد العموم في الوصف، ولم يقل: (الدّريّ) حتّى يُرادَ به كوكبًا بعينه، والتعميم أولى وأحسن من التَّخصيص بالعَلَميَّة[1].

بلاغةُ الكناية في المشبَّه به:

الكناية معبّرة عن شدة الإضاءة

وصفُ الكوكبِ ونسبته إلى الدُّرِّ - في قوله: ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ - كنايةٌ عن أنَّه أضْوَأُ وأحسن من سائر الكواكب، كما أنَّ الدُّرَّ أضوَأُ وأحسن من سائر اللَّآلئ[2].

توجيهُ القراءاتِ في: ﴿دُرِّيٌّ﴾:

الكوكبُ الدُّرِّيُّ دفّاعٌ للظُّلمة جمّاعٌ للنّور

قرأ أبو عمرو والكسائي ﴿دِرِّيٌّ﴾[3] بكسر الدّال، ومدِّ الرّاء، على وزن (صِدّيق - فِعّيل) من (الدَّرْء)، وهو (الدَّفْع)؛ لأنَّه يدفع الظَّلام بضوئه، كأنَّه ينقضُّ عليه بإشراقه، حتّى يُزيحَهُ، فيتضاعفَ نورُه، ويَخْلُصَ، أو لأنَّ الرّائي له يُخيَّل إليه أنَّ أجزاء شعاعه تتدارَأُ من فرط الوهَج[4]، وشبَّه الكوكب بحالة الدَّفْع؛ لأنَّه يكون في تلك الحالة أضوأَ وأنورَ، ووزن فِعّيل في ﴿دِرِّيٌّ﴾ يدلُّ على الانهماك والوَلَع بالفعل حتّى يكون عادةً وديمومة، وهو بناء مبالغة، وكأنَّ الكوكب دفّاعٌ للظلمة جلّابٌ للنّور[5]، وقرأ بها حمزة وشعبة ﴿دُرِّيٌّ﴾ بضم الدّال والمدِّ والهمز[6]، على زنة (فُعّيل)، وهو وزنٌ نادرٌ في كلام العرب، وهو من الدَّرء أيضًا بمعنى الدَّفع كذلك، وقُرِئَ: ﴿دُرِّيٌّ﴾[7] نسبةً إلى الدُّرِّ، وهو جنسٌ من اللؤلؤ معروف، ويجوز أن يكون غير

(1) القنوجي، فتح البيان: 9/ 225، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 238، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 10272.
(2) ثناء الله، التفسير المظهري: 6/ 523.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 332.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 239.
(5) السامرائي، معاني الأبنية، ص: 103.
(6) ابن الجزري، النشر: 2/ 332.
(7) قرأ بها الباقون، ابن الجزري، النشر: 2/ 332.

منسوب، على وزن (فُعّيل) من الدَّرْء: وهو الدَّفْع، فخفِّفت الهمزة، فانقلبت ياء، ثمَّ أدغمت الياءُ في الياء، فهي والقراءاتان السّابقتان سواءٌ، فالتفنن في إيراد صِيَغ المبالغة هنا في القراءات أثرى المعاني؛ فهذا الكوكب بالغٌ الضياء في نفسه، ويدفع الظلام من حوله، وقد يرد على البال أنه قد يؤذي العين بضيائه، فأتت القراءة الأخرى لتوضح أنه لطيف في نوره مثل الدُّرة المتلألئة المكنونة الصافية.

موقعُ جملة: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ ممّا قبلَها:

الجملة إما صفة وإما خبر ثان

جملة: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ في موقع الصِّفة للمصباح الأوَّل النَّكرة في قوله: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، أو الجملة خبرٌ ثانٍ لمصباح الثانية المعرفة في قوله: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾، فالضَّمير بعد ﴿يُوقَدُ﴾ الذي هو نائب الفاعل يعود على المصباح[1].

توجيهُ القراءاتِ في: ﴿يُوقَدُ﴾ وبلاغتها:

بـركـة الأصـل تسري في الفرع

قرأ نافع وابنُ عامر وحفص بياء مضمومة، وإسكان الواو وتخفيف القاف ورفع الدّال ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ بالتَّذكير، على البناء لما لم يسمَّ فاعله، أي: (يُوقَدُ المصباحُ من موْقِده)، والجملة صفة لـ: ﴿مِصْبَاحٌ﴾، وقد سبق الكلام عليها، وقرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلَف ﴿تُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ بالتَّأنيث، على البناء لما لم يسمَّ فاعله، وكان فاعله الزجاجة، والمعنى على مصباح الزجاجة، فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، فيقول: ﴿تُوقَدُ﴾ على لفظ الزجاجة، وإن كان يريد القنديل.

وقرأ ابنُ كثير، والبصريّان، وأبو جعفر بتاء مفتوحة وفتح الواو والدّال وتشديد القاف: ﴿تَوَقَّدَ مِن شَجَرَةٍ﴾ بالبناء على الفتح، على أنَّه فعل ماضٍ، والجملة صفة لـ: ﴿مِصْبَاحٌ﴾، على البناء للمعلوم، والقراءة بصيغة المضارع: ﴿يُوقَدُ﴾، و﴿تُوقَدُ﴾ أفاد تجدُّد الإيقاد،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 239، وصافي، الجدول: 9/ 263.

أي: لا يخبو، ولا يُطفأ، ولا يخفى ما في المضارع مع التَّضعيف في القاف من تكثير الوقود وحكاية شِدَّته، وعلى قراءة ﴿تَوَقَّدَ﴾ بصيغة المضي، فتفيد أنَّ وقوده ثبَت، وتحقَّق[1].

معنى ﴿مِن﴾ في: ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ ابتدائيَّة، أي: يوقَد وقودًا صادرًا من شجرة، أو يبتدِئُ إيقاد المصباح من شجرة[2].

إجراءُ النَّظم على الحذف في: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾:

قوله سبحانه: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ جارٍ على حذف مضافٍ، أي: يوقَد فتيلُ المصباحِ مِنْ زَيْتِ شجرة[3].

الكنايةُ في جملة: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾:

في قوله سبحانه: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ إيماءٌ إلى الحاجة إلى اجتهاد علماء الدّين في استخراج إرشاد الإسلام على مرور الأزمنة؛ لأنَّ استخراج الزَّيْت من ثَمَر الشَّجرة يتوقَّف على اعتصار الثَّمرة، وهو الاستنباط، فثبت بذلك أنَّ مادَّة التنزيلِ والوحي غَضَّةٌ لا تجِفُّ، فاستنباط الهِدايةِ منها قائمٌ إلى يوم الدّين[4].

تحصل الخُلاصاتُ النّافعة من الاستنباط والإشارات، لا من الظّواهر والعِبارات

نكتةُ تخصيصِ الشَّجرةِ بالبركة:

الشَّجرة المباركة في قوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ﴾ هي شجرةُ الزّيتون، ووصِفت بالبركة لكثرة خيرها وثُبوتِه، وسهولة الانتفاع بها، وتعدُّد منافعها، فهي تستخدم في الوقود، والغِذاء، والدَّواء، والادِّهان، وحينما تتشرَّب فتيلةُ المصباح بزيتها، تُنْتِج نارًا مُنيرَةً صافية؛ لصفاء مصدرِها وجودته، فخصَّها بالذِّكر؛ لأنَّ زيتها أضوأُ وأصفى؛ لجودة مادَّته الدُّهنيَّة، القابلة للاشتعال، القليلة الدُّخان،

الوصف بالبركة راجع إلى كثرة منافعها وطيب منبتها

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 332، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 239.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 176.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 274.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 244.

أو هي مباركة؛ لنِسْبتها إلى أصل مَنْبتِها في الأرض المباركة، وهي أرضُ الشّام[1].

نوعُ الوصف بقوله: ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾:

الصفة هنا إما كاشفة وإما مخصِّصة

وصف ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ في قوله: ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ إن أُريد بها عمومُ شجر الزَّيتون؛ فالصِّفة هنا صفة كاشفة، تحكي الواقع، والمعنى: أنَّ كلَّ زيتونةٍ هي مستودَعٌ للبركة والخير، وإن أُريد نِسبة الزَّيتونة - بوصفها مباركةً - إلى أرض الشّام؛ فهي صفةٌ مُخصِّصةٌ تفيد التَّمايز في البركة على سائر شجر الزَّيتون في الأماكن الأخرى، والمعنى: أنَّ اللّهَ بارك في زيتون الشّام، فهو أبْرك من غيره، أي: شجرةٌ ذات بركةٍ ووفرة من بين سائر شجر الزَّيتون، فيكون ذكرُ هذا الوصف لتحسين المشبَّه به؛ ليَنْجرَّ منه تحسينٌ للمشبَّه[2].

موقعُ قوله: ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ وفائدته:

ذِكر الخاص بعد العام اهتماما بالخاص وتفخيما لشأنه

لفظ ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ في قوله سبحانه: ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ بدلٌ من ﴿شَجَرَةٍ﴾، فذكر اسم الجنس: ﴿شَجَرَةٍ﴾، ثم أبدل منه ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ وهو اسمُ نوعها؛ للبيان بعد الإبهام، اهتمامًا بالشَّجرةِ وتعريفِها؛ لتقريرها في الذِّهن، وتفخيمًا لشأنها[3].

موقعُ جملة: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾:

من أسباب بركة الشجرة الموصوفة بها اعتدال موقعها من الشمس فتفيد كل جهاتها منها

قولُهُ تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ صفةٌ لشجرة، والمراد بنفي الشرقيَّة والغربيَّة عنها، نفي الجهة، والمعنى: مَنْبَتُ الشجرة لا في جهة الشَّرق، ولا في جهةِ الغرب[4]، والياء فيهما للنَّسب، أي: ليست منسوبةً إلى جهة الشَّرق وحده، فلا تَلْفَحُها الشَّمسُ إلّا عند الشُّروق

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 296، والطيبي، فتوح الغيب: 11/ 95، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 44.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 104، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 240.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 107، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 176، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 240.
(4) صافي، الجدول: 9/ 263.

فقط، وليست منسوبةً إلى جهة الغرب، بحيث لا تعترضها الشمس إلّا عند الغروب فقط، بل هي بارزةٌ للشَّمس من حين الشُّروق إلى وقت الغروب[1].

دلالةُ تَكرار حرف النفي:

تـكـرارُ النَّـفـي تـأكـيـدٌ لـه ومبالغةٌ فيه

أُعيد حرف النَّفي في قوله: ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لتأكيد النَّفي، فـ (لا) في الموضع الثاني في قوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ صلةٌ زيدت للتأكيد والمبالغة في النَّفي؛ لإفادة الاتِّصاف بنفي كل وصفٍ استقلالًا[2].

قيمةُ الطِّباق في قوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾:

الـوسـطُ هو المَسْلَكُ الأعدَلُ غالبًا

في قوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ طباقٌ بالإيجاب، صرَّح فيه بإظهار الضِّدَّين منفيَّين، والمقصود بنفي الضِّدَّين: إرادة الاتِّصاف بوصفٍ وسطٍ بين الوصفين المنفيَّين؛ لأنَّ الوصفين ضِدّان على طريقة قولهم: الرّمان حلوٌ حامض، أي: وسطٌ بين الجهتين، فهي في جهةٍ وسطٍ بين الشَّرق والغرب، وهذا المعنى ظاهرٌ جدًّا على اعتبار أنَّ الشجرة هي الزَّيتونة في أرض الشّام المباركة، يعني: أنَّها بالشّام، فليست من شرق الأرض ولا من غربها، وأجود الزيتون زيتون الشامِ، ويحتمل أن يكون المعنى: أنَّ جهة تلك الشجرة في موقعٍ غير شرق الشَّمس وغربها، وهو أن تكون متَّجهة إلى الجنوب، أي: لا يحجبها عن جهة الجنوب حاجب، وذلك أنفعُ لحياة الشَّجرة وطيب ثمرتها، فبذلك يكون زيتُها أجودَ زيتٍ[3].

دلالةُ العطف في: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾:

خيرُ النَّصيب ما تـعـدَّدَتْ مـوارد النَّفْع فيه

العطفُ في قوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ من باب عطف الصِّفات، كقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: 143]، فتقتضي وصفًا ثالثًا على الوصفين، وأمّا إذا لم يكن الأمران

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 275.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 241.
(3) ابن جزي، التسهيل في علوم التنزيل: 2/ 71، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 241.

المنفيّان متضادَّين؛ فإنَّ نفيهما لا يقتضي أكثرَ من نفي وقوعِهما، كقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ [الواقعة: 43 - 44]، ولكنْ يُحتمل أنْ يكون نفي الضدَّين، يُرادُ منه إثباتُ المفهوم الموجَب للوصفين، أي: هي شرقيَّةٌ وغربيَّة، فتصيبها الشَّمس عند طلوعها وعند غروبها، فتكون شرقيَّةً وغربيَّة تأخذ حظَّها من الأمرين، فيكون زيتها أضوأ[1].

بلاغةُ الكناية في تركيب: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾:

في نفي الضدَّين في قوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾، كنايةٌ عن لازم معناه، من ثبوت المفهوم الموجَب، أو إثبات جهةٍ وسيطة[2].

موقعُ جملة: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾:

جملة ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ حال من ﴿شَجَرَةٍ﴾، وجملة: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ حال من فاعل ﴿يُضِيٓءُ﴾، وهو الضَّمير العائد على الزَّيت.

دلالةُ فعلِ الكيدودة في: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾:

المبالغة في وصف صفاء زيت الشجرة المباركة

(كاد) يدلُّ على قُرب حصول الفعل في الحال، إلا أنَّه لم يقع بعدُ، فهي تثبت المقاربة، ولا تُثبِت الفعل، فتقال لما هو على حَدِّ الفِعل، كالدّاخل فيه لا زمان، بينه وبين دخوله، فمعنى ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾، أي: تحقَّقتْ مُقاربَتُهُ - أي: الزَّيت - من أن يضيء[3].

بلاغةُ الكناية في: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾:

المبالغة في وصف صفاء زيت الشجرة المباركة

في قوله سبحانه: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ كنايةٌ عن المبالغة في صفاء الزَّيْت، وأنَّه - لإشراقه وجودته - يكاد يضيء من غير نار، وأحد دلالات هذه المبالغة مجيءُ ﴿يَكَادُ﴾ بالمضارعة، فهو متجدِّد الصَّفاء والإشراق، كأنَّما طُبِعَ اللهَبُ فيه[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 176، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 241.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 241.
(3) ابن يعيش، المفصل: 2/ 164، والسامرائي، معاني النحو: 1/ 276.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 46.

دلالةُ (لو) في: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾:

(لو) تفيدُ تحقيقَ ما قبلَها، واستقصاء الأحوال

(لو) الشرطيَّةُ في قوله: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ جوابُها محذوفٌ؛ لدلالة ما قبلَهُ عليه، أي: ولو لم تمسسه نارٌ يكاد زيتها يضيء، و(لو) هنا تفيد استقصاء الأحوال واستقصاء غايةِ ما يُتوقَّع معه انتفاءُ حُكْم ما قبلها، فيذكره المتكلِّم لِقصدِ تَحقُّق الحكم في جميع الأحوال التي تعترضه، أو تطرأ عليه، أي: يكاد زيتها يضيء في كلِّ حالٍ من وجود الشَّرط وعدمه، لو مسَّتْه نارٌ، ولو لم تمسَّه نار، فـ(لو) أفادت الوصلَ والربط بين ما قبلها وما بعدها؛ لتحقيق مضمون الحكم الموجَب قبلها في قوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾[1].

التَّشبيهُ المرسل في الآية:

قلوبُ الأصفياء أوعيةٌ لتلقّي أنوار السّماء

في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ إلى قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، فقد جاء التشبيه هنا بواسطة الأداة وهي الكاف، والمراد أنَّ النّورَ الذي شُبِّه به الحقُّ نورٌ متضاعِف لِصُدورِه من أوعية النّور المتَّحِدَة على استجماعه واستخلاصه وزُبْدَته، وهي المشكاةُ والزجاجةُ والمصباحُ والزَّيت، وهذا التَّشبيهُ يصحُّ إجراؤه على طريقة التَّمثيل المركَّب، الذي قُصِد فيه تشبيه جملةٍ بجملةٍ من غير نظرٍ إلى مقابلة جزءٍ بجزء، بل قُصِد تشبيه هُداه وإتقانه صنعتَهُ في كلِّ مخلوقٍ على الجُملة، بهذه الجُملة من النّور الذي تتَّخذونه، وهو أبلغ صفات النّور عندكم، ويصحُّ إجراؤه على التشبيه المفرد غير المركَّب، والذي قُصِد فيه مقابلة جزءٍ بجزء[2].

إجراءُ النَّظم على التشبيه التمثيليِّ المركَّب:

المعرفة تضيء في قلب العارف بنور التَّوفيق

طريقةُ التشبيه المركَّب، هي الأقرب مأْخَذًا؛ لسلامتها من التكلُّف، وهي أن تُشبَّهَ الجملة برمَّتها بنور المؤمن من غير تعرُّضٍ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 177، والسمين، الدر المصون: 8/ 408.
(2) درويش، إعراب القرآن: 6/ 608.

لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه، ومقابلته بجزء من المشبَّه به، وعلى هذا عامَّة أمثال القرآن الكريم، فالمشكاةُ في الحائط تختزِل الضَّوء، وتستجمِعُه، قد وُضِعَ فيها مصباحٌ، وذلك المصباح داخل زجاجة تُشبه الكوكب الدُّريَّ في صفائها وحسنها، ومادَّة إيقاده من أصفى الأدهان وأتمِّها وقودًا، مِن زيت شجرةٍ ثابتة الخير، متواتِرة الوَفْرَة، لا شرقيَّة ولا غربيَّة، فمن شدَّة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه، يكاد يضيء من غير أن تمسَّه نارٌ، فهذا المجموع المركَّب هو مِثْلُ نور اللّه تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصَّه به، فمَثَلُ نوره في قلب عبده المخلص كمشكاة، والمشكاة: القلب، والمصباح: النّور الذي قُذِف فيه، والمعرفة تضيء في قلب العارف بنور التَّوفيق في مصباح النّور، توقَدُ من شجرةٍ مباركة، تضيء على شخصٍ مبارك، تتبيَّن أنوار باطنِه على آداب ظاهره، وحسن معاملته، زيتونة لا شرقيَّة ولا غربيَّة، جوهرة صافية[1].

إجراءُ النَّظمِ على التَّشبيه المفرد:

قلب المؤمن إذا رقّ شابه الزجاج إذا ترقرق

والطريقةُ الأخرى: طريقةُ التشبيه المفصَّل المفرد، فالمشكاةُ صدرُ المؤمن، والزجاجة قلبه، وشبَّه قلبَه بالزُّجاجة؛ لرقَّتها وصفائها وصلابتها، وكذلك قلب المؤمن فإنَّه قد جمع الأوصاف الثلاثة، فهو يرحمُ، ويحسِن، ويتحنَّن، ويُشفِق على الخلق برقَّته، وبسبب صفائه تتجلّى فيه صورُ الحقائق والعلوم على ما هي عليه، ويجفو عن الكدر والدَّرَن والوسَخ بحسب ما فيه من الصَّفاء، وبسبب صلابته يشتدُّ في أمر اللّه تعالى، ويتصلَّب في ذات اللّه تعالى، ويغلُظ على أعداء اللّه تعالى، ويقوم بالحقِّ للّه تعالى، والمصباح هو نور الإيمان في قلبه، والشَّجرةُ المباركة هي شجرة الوحي المتضمِّنة للهُدى ودين الحق، وهي مادَّة المصباح التي يتَّقِد منها، والنّور على النّور: نورُ الفطرة

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 95، وابن القيم، التفسير القيم، ص: 396.

الصَّحيحة والإدراك الصَّحيح، ونور الوحي والكتاب، فينضمُّ أحد النّورَين إلى الآخر، فيزداد العبد نورًا على نور[1].

وقيل: هذا مثلٌ ضربَهُ اللّهُ لنبيه ﷺ: المشكاة: صدره، والزُّجاجة: قلبُهُ، والمصباح فيه: النُّبوَّة، والمصباح: ما في قلبه من الدين، وقيل: المشكاة: جوفُ محمَّد ﷺ، والزجاجة: قلبه، والمصباح: النور الذي فيه[2].

موقعُ جملة: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ ممّا قبلَها:

الجملة فذلكة ونتيجة لمضمون المثل قبلها

قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مسوقة لتقرير مضمون ما قبلَها من المَثَلِ المذكور في قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، وهي فذْلَكةٌ بعد المَثَل، أي: إجمالٌ لتفصيلِه، وإيجازٌ لإطنابه، وخُلاصةٌ لاستطراده، والفذلكة منحوتةٌ كالبسملة، وأصلها من عبارة: (فذلك كذا) أي: (فذلك المَثَلُ المضروب من المشكاة والمصباح والزُّجاجة والزَّيتونة المباركة، والزَّيت المضيء، ذلك كلُّه خلاصتُه وغاية أمره: نورٌ على نور)، أي: ذلك النّورُ الكامل في المشبَّه، كذلك كمالُ نورِ المشبَّه به في الهدى الحقِّ والعِلم والإيمان[3].

بلاغةُ الاستعارة في: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾:

تشبيه اللطيف بالكثيف لتصوير ارتقاء النور فوق النور بواسطة الاستعارة المكنية

في قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ شبَّه النّورَ فوق النّور، بشيءٍ كثيفٍ يتضاعف بجعلِ شيءٍ عليه، على جهة الاستعارة المكنيَّة؛ إذ حقيقةُ الفوقيَّة تقع في الأشياء الكثيفة، وأمّا في اللطيفة كالنّور؛ فيختلط بعضها ببعض، فلا تظهر الفوقيَّة والاستعلاء في: ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ مجازي[4].

(1) ابن القيم، التفسير القيم، ص: 396، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 44.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 95.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 177.
(4) القونوي، حاشية القونوي: 13/ 371.

دلالةُ التَّنكير في: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾:

أجناس الأنوار إذا اتَّحدت، تضاعفَتْ واكتملَتْ

التَّنكيرُ في قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾؛ للعموم والكمال، والمبالغة والتفخيم، كأنَّ أجناس الأنوار اتَّحدت حتّى تضاعفَتْ، واكتملَتْ، فالتنكير يفيد كمال الأنوار المدلول عليها بمضمون المَثَل، مع تعظيم ذلك النّور والإلفات إلى فرادَتِهِ في صِفته[1].

الموقعُ البيانيُّ لقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾:

مَنِ استنار بوحي الله، تظاهرَتْ أنواره عليه، فكان الوحي ظهيرًا له

جملة ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ تشير إلى أنَّ المقصودَ من مجموع أجزاء المركَّب التمثيليِّ في المَثَل المذكور من أوَّل قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ ... الآية، هو تحصيلُ خُلاصةٍ مفادُها: أنَّ هيئة المُشبَّهِ بهِ، المُعبَّر عنه بأوعية النّور في المَثَل، من المشكاة والمصباح والزُّجاجة إلى آخره ... قد بلغَتْ تلك الهيئة حدَّ المضاعفةِ لوسائل الإنارة؛ إذْ تظاهرت فيها المشكاةُ والمصباحُ والزجاجُ الخالصُ، والزَّيت الصافي، فالمصباح إذا كان في مشكاة؛ كان شعاعُهُ منحصرًا فيها غير منتشرٍ، فكان أشدَّ إضاءةً لها ممّا لو كان في بيتٍ أو مكانٍ مفتوح، وإذا كان موضوعًا في زجاجةٍ صافيةٍ زاد نورُه، وتَضاعَف، وإذا كان زَيْتُه نقيًّا صافيًا؛ كان أشدَّ إسراجًا، فحصل تمثيل حال الدّين أو الكتاب المنزَّل من الله في بيانه، وسرعةِ فُشوِّه في النّاس، بحال انبثاق نور المصباح وانتشارِهِ فيما حفَّ به من أسباب قوَّةِ شعاعه وانتشاره في الجهة المضاءة به[2].

موقعُ جملة: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾:

مرجعُ الأحوالِ في الهدايةِ أو عَدَمِها إلى مشيئة الله سبحانه

جملةُ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ تذييلٌ بعد التمثيل بالنّور وكمالِه، قُصِدَ به دفْعُ التعجُّبِ من عدم اهتداء كثيرٍ من النّاس بذلك النّورِ الَّذي أنزلَهُ اللّهُ رغم كمالِهِ وقوَّة شعاعِ برهانِهِ، وهو القرآنُ

(1) درويش، إعراب القرآن: 6/ 611.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 241، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 243.

والإسلام، فدرأَ بهذا التَّذييل ذلك الاستعجاب، بتقرير أنَّ مرجِع الأحوال في الهداية وعدمها إلى مشيئته، بمقتضى عِلْمِهِ وحكمتِه.

الإظهارُ في مقامِ الإضمار:

الفخامةُ الذّاتيَّة تـزدانُ وتتجلّى بفخامة النِّسبةِ والإضـافـةِ إلـى الـجِـهـات الشَّريفة

لم يقل في السياق الكريم: (نورٌ على نور يهدي اللّه إليه من يشاء)، بل أظهر النّور، فقال: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ لزيادة تقريرِ النّور، وتأكيد فخامته الذاتيَّة بفخامته الإضافيَّة الناشئة من إضافته إلى ضميرهِ ﷻ، فتوسَّل بهذا الإظهار إلى إضافته إلى اسم الجليل سبحانه، تفخيمًا لحقيقة النّور بواسطة الإضافة الشريفة[1].

دلالةُ ﴿مَن﴾ في: ﴿مَن يَشَآءُ﴾:

تُـنـاطُ الـهـدايـةُ بـمـن يستأهلها من النّاس

أفاد التَّعبيرُ بالموصول المشترك العام في قوله: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ الدَّلالةَ على عموم المكلَّفين رجالًا ونساءً، لإناطة الهداية المذكورة بكلٍّ من استأهل صفةَ التَّكليف.

الإظهارُ في مقام الإضمار في الاسم الجليل:

عـدمُ الـهـدايـةِ ينشأ من إعراض الـعـبـد، لا من إجبار الرَّبِّ

إظهارُ الاسم الجليلِ في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾، ولم يقل: (يهدي اللّه لنوره من يشاءُ، ويضرب الأمثال)؛ لاختلاف الإسنادين، فأظهر في المقامين، إيذانًا باستقلال كلٍّ غرضٍ عن نظيره، وعنايةً بكلِّ قِسْمٍ منهما استقلالًا، ففي الآية الأولى: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أظهر الاسم الجليل في مقام الهداية الخاصَّةِ لمن تعلَّقت بهم المشيئة بدليلِ قولِهِ: ﴿مَن يَشَآءُ﴾، ثمَّ أظهر الاسم الجليل ثانيًا في مقام ضرب الأمثال، وهي حالٌ عامَّة لا تخصيص فيها لفئةٍ دون فئة، بدليل قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾، وليدلَّ بذلك على أنَّ من لم تشمله مشيئةُ الهداية، ليس معذورًا بذلك؛ لأنَّه مُخاطَبٌ بالحُجَّة في ضرب الأمثال، فعدمُ هدايته

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 177.

ناشئٌ من إعراضه عن الاستفادة من ضرب الأمثال الذي كان لأجل أن يهتدي[1].

فائدةُ التَّذييلِ بقوله: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾:

التعقيبُ بقوله: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِۗ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ بيانَ حقيقةِ نور الله، لا يَسَعُهُ نِطاقُ التَّحرير، والأمثال ماهي إلّا لتقريب صورته، لا لتحديد حقيقتِه، فكلٌّ يأخذ من التَّمثيل له بقدر استعداده وطاقته، حتّى يكون النّاسُ على رُتَبٍ ومنازَل متفاوته في استيعاب هذا التَّقريب بحسب تفاوت مراتبهم وأقدارهم في صلاح الأحوال وسلامة العقول، لكنَّ الله بعلمِه الواسع يعلم حقيقتَهُ، والله بكلِّ شيءٍ عليم[2].

كـلٌّ يفهم عن الله بقدر طاقته وجاهزيّته

الموقعُ البيانيُّ لجملة: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾:

قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ تذييلٌ مُقرِّر لمضمون الجملتَين قبلَهُ، في قوله: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾، وقوله: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾، ووجْهُ التَّقرير: أنَّه باستغراق علمِه للكلّيّات والجزئيّات، يعلم من هو قابلٌ للهدى، ومن هو مُصِرٌّ على غيِّه، فيوكِلُ كُلَّ واحدٍ إلى استحقاقِه، ولأجْل شمول علمِه وسَعَتِه، فإنَّه أعلمُ بقوالب الأمثال التي يستودعها حقائقَ أنوارِه وأسرارِه، وأعلم بقابليَّتها لنفع النّاس وإصلاحهم، بتوطين حُجَّتِه الدّامغة فيه، فحصل بذلك أنَّه ضربَ المثلَ بالنّور، ثمَّ جعل المثَلَ نفسَهُ نورًا في الحجَّة وكمالًا في البيان، فحصل في المشبَّه والمشبَّه به أنَّهما نورٌ على نور، ولا يقدر على تلك الحكمة في البيان والبرهان إلّا ذو الإحاطة التامّة في العِلم بكلِّ شيءٍ في المحسوسات والمعقولات، والظّواهر والكيفيّات[3].

عِـلْـمُ الـلـه بما كـان ومـا يـكـونُ لا ينفي اختيار الـعـبْـدِ فيما يعمل

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 178.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 99.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 108، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 178، وابن عاشور، التحرير: 18/ 244.

بلاغةُ الكنايةِ في جملة الفاصلة:

مَن آمن بكمال عِلْم الله، لم يَعصِهِ

قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ كنايةٌ عن لازِمِهِ، من الإيماء بالوعيد لمن جفا عن الاعتبار بالأمثال، والوعدِ لمن استذكرها، وعمل بمقتضى مقاصدِها وأحكامها[1].

نكتةُ إظهارِ الاسم الجليلِ في جملة الفاصلة:

بالعِلم يحصل النّور وتُستَبْصَرُ مواردُهُ

أظهر الاسمَ الجليل في جملة الفاصلة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ - رغم تقدُّم ذِكْرِهِ - لتأكيد استقلال الجملة، والإشعار بعلَّة الحكم قبلَهُ، من تعليق الهداية على المشيئة، وضرب الأمثال للناس، كأنَّه قيل: فعلنا ذلك، وصحَّ تحقُّقُهُ وثبوته؛ لأنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليم، فلكي يتقرَّر معنى العلّيَّة، لا بدَّ من إظهار الاسم الجليل، كما اقتضى اختلافُ المَناطَين - في مضمون الجملتين قبلها - التَّصريحَ بالاسم الجليل؛ لتعليق الحُكْمَيْن فيهما على اتِّصاف الله بالعلم الكامل، ولو أضمر؛ لتوهَّم أنَّ التذييلَ بكمال العلم منوطٌ بأحد الجملتَين دون الثانية[2].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 108.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 178.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»